المجرمون في سورة هود
وأساليبهم في التكذيب

د. سعد بن عبدالعزيز العنزي
الأستاذ المساعد بجامعة حفر الباطن-كلية الاداب
قسم الدراسات الإسلامية

The criminals in Surat Hud and their methods of denial

Dr. Saad bin Abdulaziz Al-Anazi
s1a1a1d9@windowslive.com

Abstract

The research aims to define the concept of crime in its both general and specific types. It also aims at defining Surat Hud with the explanation of its embodied virtues. Furthermore, the study tackled and defined some criminals who are mentioned in Surat Lot such as: the people of Noah, the people of Hud, the people of Saleh, the people of Lot, and the people of Shuaib. Moreover, the study discussed ten of the methods that the criminals used in denying their messengers (prophets). These are: Mockery, ridicule, humanity, following the weak, following without reason, lack of virtue, accusation of lying, hasty torment, invoking lack of argument and proof, accusation of insanity and madness, and doubt.

Key words: Hud, crime, denial, mockery, madness

ملخص البحث

يهدف البحث إلى التعريف بمفهوم الجريمة بنوعيه العام والخاص، وكذلك التعريف بسورة هود وبيان فضلها، ثم ذكر بعض المجرمين في تلك السورة والتعريف بهم وهم: قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب. ثم ذكر عشرة من الأساليب التي اتبعها المجرمون في تكذيبهم لرسلهم. وهي: الاستهزاء والسخرية، والبشرية، واتباع الضعفاء، والاتباع من غير تروي، وعدم الفضيلة، والاتهام بالكذب، واستعجال العذاب، والتذرع بعدم الحجة والبرهان، والرمي بالخبل والجنون، والشك.

الكلمات الافتتاحية: هود، الجريمة، التكذيب، الاستهزاء، الجنون.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأولين والآخرين، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله إمام المتقين وقائد الغر المحجلين، صلى الله عليه وعلى سائر إخوانه النبيين وعلى آله وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا.أما بعد...فإنه لا يمكن للمؤمن أن يستبين سبيل المؤمنين استبانة واعية مدركة حتى يستبين سبيل المجرمين وفي ذلك يقول النبي ﷺ « من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله »[١].قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في التعليق على هذا الحديث : وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصما للدم والمال، بل ولابد من معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله أو دمه. فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلها، ويا له من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع[٢].وقد صح عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني»[٣]. وفي رواية عند البخاري: «تعلم أصحابي الخير وتعلمت الشر»[٤]. وهذا من فقهه رضي الله عنه. وكثير من الناس إنما أتوا من هذا الباب، لاسيما مع تجدد وسائل أهل الباطل وتنوعها، والتفنن في عرضها وتنفيذها، حتى التبس الحق بالباطل، فكان لابد من تبيين سبيل المجرمين في ذلك، كما أوضحها الله جل وعز من غير موارية، ليكون المؤمنون منها على حذر. قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ الأنعام: ٥٥ولذلك وبعد تحقيق النظر ومزيد من التأمل رغبت أن يكون البحث عن المجرمين وأساليبهم في معارضة دعوات الأنبياء، وذلك لما يلي:

- أن أعداء الرسل عليهم السلام هم من المجرمين كما ورد في التعبير القرآني الكريم. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الفرقان: ٣١
- أن لفظ المجرم يدخل فيه كل عدو للحق وأهله ولو لم يكن كافرا صريحا كالمنافقين مثلا بخلاف لفظ الكافر فلا يدخل فيه إلا من أظهر الكفر.
- تصحيح مفهوم معنى الإجرام في الشرع، فقد شاع في الأزمنة المتأخرة إطلاق هذا الوصف على من ارتكب جريمة جنائية كالقتل ونحوه، وقصر المعنى على ذلك. وهذا إن كان صحيحا سائغا من في اللغة والشرع، إلا أن القرآن الكريم لم يرد به صراحة وإنما الذي ورد في القرآن إطلاق هذا اللفظ على كل من كفر بالله وعادى رسله وتصدى لدعوتهم، ولو لم يقتل أحدا قط في حياته أو يسرق أو يزني.وقد قمت باختيار سورة هود لتكون المرجع الذي أستقي منه الأساليب، فقد فصلت لنا هذه السورة الكريمة الشبهات التي واجه بها المجرمون المرسلين، كما فصلت لنا الرد على هذه الشبهات واحدة واحدة. والحق أن في هذه السورة الكريمة دروسا هادية هادفة لابد أن يقف عندها المصلحون ورجال الدعوات

وعلماء الاجتماع، وسيدرك أولئك جميعا أن هناك قضايا أساسية يشترك فيها الناس جميعا مهما تباعد الزمن وتطاولت الدهور واختلفت العصور فالشبه التي ألقاها أولئك المجرمون لرسلهم هي نفسها التي نجدها اليوم من الذين يتكبرون على الحق وأهله وأعجبتهم أنفسهم وغرتهم أموالهم ومناصبهم ومكانتهم الاجتماعية والاقتصادية. ولذلك تم اختيار هذه السورة نموذجا للبحث في أساليب المجرمين.

خطة البحث

وينقسم البحث إلى مقدمة وتمهيد وأحد عشر مبحثا المقدمة: وتشتمل على أهمية الموضوع وأسباب اختياره وخطة البحث والمنهج في البحث.التمهيد: وفيه ثلاثة مباحث:المبحث الأول: مفهوم الجريمة.المبحث الثاني: التعريف بسورة هود.المبحث الثالث: المجرمون في سورة هود. وتحته خمسة مطالب:المطلب الأول: قوم نوح عليه السلام المطلب الثاني: قوم هود عليه السلام.المطلب الثالث: قوم صالح عليه السلام.المطلب الرابع: قوم لوط عليه السلام.المطلب الخامس: قوم شعيب عليه السلام.المبحث الأول: الاستهزاء والسخرية.المبحث الثاني: البشرية.المبحث الثالث: اتباع الضعفاء.المبحث الرابع: الاتباع من غير تروي.المبحث الخامس: عدم الفضيلة.المبحث السادس: الاتهام بالكذب.المبحث السابع: استعجال العذاب. المبحث الثامن: التذرع بعدم الحجة والبرهان.المبحث التاسع: الرمي بالخبل والجنون.

المبحث العاشر: الشك.المراجع الفهارس

منهج البحث

- كان منهجي في هذا البحث إجمالا يعتمد على التدبر والاستقراء للآيات التي تحدثت عن المناقشة والمجادلة بين الرسل وأقوامهم من خلال سورة هود.
- جمع آراء المفسرين لتلك الآيات واستنباطهم للأساليب
- عزو الآيات القرآنية إلى السور، فأذكر اسم السورة ورقم الآية مهما تكررت وكتبتها بالرسم العثماني.
- الاستعانة بكتب السنة في تخريج الأحاديث وعزوها إلى مصادرها الأصيلة.

التمهيد: وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم الجريمة

الجريمة في اللغة: أصل هذه الكلمة: جرم.قال ابن فارس: الجيم والراء والميم أصل واحد، يرجع إليه الفروع، فالجرم: القطع، ويقال لصرام النخل الجرام. ومما يرد إليه قولهم: جرم أي كسب، لأن الذي يحوزه فكأنه اقتطعه وفلان جريمة أهله أي كاسبهم ..والجرم والجريمة: الذنب، وهو من الأول لأنه كسْب والكسْب اقتطاع (٥).وقال الراغب الأصفهاني: أجرم صار ذا جرم نحو: أثمر وأتمر وألبن، واستعير ذلك لكل اكتساب مكروه، ولا يكاد يقال في عامة كلامهم للكيس المحمود. ومصدره: جرم(٦).والإجرام: الإقدام على القبيح بالانقطاع إليه، لأن أصل الجرم القطع فكأنه قطع ما يجب أن يوصل من العمل، ومنه قيل للذنب الجرم والجريمة(٧).والمجرم: المنقطع عن الحق إلى الباطل وهو القاطع لنفسه عن المحاسن إلى القبائح(٨).وفي معجم ألفاظ القرآن الكريم: مجرما: كافرا معاندا(٩).وقد وردت كلمة الإجرام وما اشتق منها في عدة مواضع في القرآن الكريم، منها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾ المطففين.: ٢٩ وقوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ الكهف.: ٥٣ وهي في مجملها تثبت صفة لمن عصى الله عز وجل ورسوله، وحاد عن طريق الحق، واتبع طريق الضلال.فالجريمة بمفهومها العام: فعل ما نهى الله تعالى عنه، وعصيان ما أمر الله تعالى به، أو بعبارة أخرى: عصيان ما أمر الله به بحكم الشرع الحنيف(١٠)، أو هي إتيان فعل محرم معاقب على فعله، أو ترك واجب معاقب على تركه(١١). فهذا التعريف يشمل كل معصية أو خطيئة أو إثم يكسبه الإنسان مما فيه مخالفة لأوامر الله عز وجل ونواهيه، سواء أكانت هذه المعصية ظاهرة أم باطنة – أي مستترة في النفس – وسواء أكان لها عقوبة دنيوية أم عقوبة أخروية، أم كانت ناتجة عن فعل إيجابي أم سلبي – امتناع أو ترك – قال الله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ الأنعام: ١٢٠ أما مفهوم الجريمة الخاص فقد وردت تعريفات كثيرة تبين معنى الجريمة في اصطلاح الفقهاء من أهمها: هي محظورات شرعية زجر الله تعالى عنها بحد أو تعزير(١٢). أو هي عصيان الله عز وجل بفعل محظور زجر الله تعالى عنه بترتيب حد على فاعله عقوبةً أو تعزيراً على فعله جزاءً في الدنيا(١٣). أو هي كل سلوك إنساني غير مشروع، إيجابياً أم سلبياً، عمديا أم غير عمدي، جزاءً جنائياً(١٤). والمدقق في التعريفات السابقة يجد أن الجريمة في المفهوم الخاص لا تخرج عن كونها محظورات شرعية تعاقب الشريعة الإسلامية عليها بحد أو تعزير، سواء أكان المحظور سلوكاً إيجابياً أم سلبياً، عمدياً أم غير عمدي.

وخلاصة القول: أن لفظ الجريمة في الأصل يطلق على القطع، وعلى كل اكتساب يكتسبه الإنسان من خير أو شر، لكن غلب عليه الاستعمال الثاني فصار يطلق على كل اكتساب مكروه.كما يطلق على كل عمل قبيح مستبشع، وذنب عظيم مستشنع صادر من كافر أو فاجر معاند للحق منقطع إلى الباطل قاطع لما أمر الله به أن يوصل.ويطلق على الجناية على النفس أو العرض أو المال أو غير ذلك من الجنايات المستوجبة للعقوبة وإقامة الحد.وقد شاع في الأزمنة المتأخرة قصر إطلاق لفظ الجريمة على الأعمال الجنائية البحتة من قتل واعتداء ونحوه، وهذا المعنى وإن كان سائغا وصحيحا في اللغة إلا أن القرآن الكريم لم يَرِد به ومن يتأمل الآيات التي ورد فيها ذكر الجريمة والمجرمين وسياق كل منها فإنه لن يجد ما يدل على هذا المعنى ولا ما يقاربه، بل إن الله عز وجل لما ذكر قصة موسى عليه السلام وقتله القبطي استجابة لاستغاثة الاسرائيلي لم يجعله من المجرمين على الرغم من مباشرته القتل واعترافه بخطئه وظلمه لنفسه، وأن ما فعله من عمل الشيطان المضل المبين، بل إن موسى عليه السلام قال ﴿رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧﴾ القصص: ١٧ ولم يقل: فلن أكون من المجرمين.والمقصود أن مفهوم الجريمة في القرآن مخالف للمفهوم الشائع عند كثير من الناس من قصر معنى الجريمة على ارتكاب عمل جنائي عدواني من قتل ونحوه. فلفظ الجريمة في القرآن الكريم تدور أكثر معانيه حول معاداة الرسل – عليهم السلام – وتكذيب ما جاءوا به من الحق والتكذيب باليوم الآخر والجزاء والحساب ولا يكاد المعنى يتجاوز ذلك إلا في مواضع معدودة لا تكاد تنفك عن المعنى السابق.كما أن مما يلفت الانتباه أن الحديث عن المجرمين في القرآن الكريم لم يرد إلا في السور المكية، أو في سياق الآيات التي تتحدث عن المشركين والمنافقين في السور المدنية وهذا قليل، والأول هو الغالب.ولعل السبب في ذلك أن السور المكية إنما كانت تعنى بالحديث عن قضايا العقيدة الأساسية، وهي: التوحيد واليوم الآخر والرسالة، وهي التي عارضها أعداء الرسل ونازعوا فيها بخلاف السور المدنية، فإن الحديث فيها يتركز في الغالب حول بناء المجتمع الإسلامي وما يحتاجه من تشريعات وأحكام في سائر شؤون الحياة المختلفة، أو ما عبر عنه بعض الكتاب بالبناء والحماية والصيانة للمجتمع الإسلامي، فلذا يقل في السور المدنية ذكر المجرمين وهذا يؤيد ما ذُكِر من المعنى السابق.

المبحث الثاني: التعريف بسورة هود

خصائص السورة:

١) مكية ماعدا الآيات « ١٢ ، ١٧ ، ١١٤ » فمدنية .

٢) من المئين.

٣) عدد آياتها . « ١٢٣ ».

٤) ترتيبها الحادية عشرة بين سور المصحف .

٥) نزلت بعد سورة « يونس ».

٦) الجزء « ١٢ » بدأت بحروف مقطعة « الر » ختمت السورة ببيان الحكمة لقصص الأنبياء .

محور مواضيع السورة :سورة هود مكية، وهي تعني بأصول العقيدة الاسلامية التوحيد والرسالة والبعث والجزاء، وقد عرضت لقصص الأنبياء بالتفصيل تسلية للنبي ﷺ على ما يلقاه من أذى المشركين لاسيما بعد تلك الفترة العصيبة التي مرَّتْ عليه بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجه خديجة، فكانت الآيات تتنزل عليه وهي تقص عليه ما حدث لإخوانه الرسل من أنواع الابتلاء ليتأسى بهم في الصبر والثبات .وبالتأمل المتأني في آيات سورة هود يلاحظ المتدبر أن موضوعها يتناول متابعةَ معالجةٍ دعويةٍ للذين لم يصلوا إلى دركة ميئوس معها من استجابتهم لدعوة الحق عن طريق إراداتهم الحرة ومتابعة توجيهات تربوية للرسول ﷺ وللمؤمنين ولا سيما حملة رسالة الدعوة إلى الله منهم، وفي بعضها يقصد الدعاة من المؤمنين ولو كان الخطاب في الظاهر موجها للرسول ﷺ.وتتضمن السورة خطابات بيانية دعوية موجهات للذين لم يؤمنوا بعد، وفيها متابعات لبيان قضايا سبق بيانها في بعض السور النازلة قبل سورة هود.لكنَّ هذه المتابعات تشتمل على إضافات وتنويع وتغيير في الأساليب تكشف جوانب رائعة من إعجاز القرآن المجيد البياني.

فضل السورة :عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله لقد أسرع إليك الشيب قال: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » [١٥].

المبحث الثالث: المجرمون في سورة هود

- **قوم نوح**.بعث الله نوحا عليه السلام إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام . بعثه بعد أن غير أهل زمانه أمانة التوحيد وصرفوها لغير مستحقها وهو الله عز وجل، فأرسله ليعيدهم إلى توحيد الخالق ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾هود: ٥٠ ونبذ ما سواه من

أصنام وأحجار لا تنفع ولا تضر فأبوا وكابروا وعاندوا فحاول جهده أن يدعوهم بلطف وإحسان وحكمة ولين كلام، فما زادهم ذلك إلا نفورا ومع هذا لم ييأس ومكث يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما، يدعوهم ليلا ونهارا سرا وجهارا إلى أن أخبره الله ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ هود: ٣٦ فدعا الله عليهم.قال الضحاك: فدعا عليهم لما أخبره الله بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن.وقال ابن كثير: وإنما دعا عليهم بهذا الدعاء لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما. واستجاب الله دعوته وأقال عثرته فأغرقهم ونجاه وأضعفهم وقواه كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ يونس: ١٠٣ وقال سبحانه ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ غافر: ٥١. وقد ذُكِرَت قصة نوح عليه السلام في بضع عشرة سورة جاء بعضها أثناء الحديث عن الأقوام المكذبين أو عن الأنبياء المؤيدين بنصر الله، بينما جاء بعضها الآخر قصصا مستقلا فصلت فيه بعض الأحداث والمشاهد.

- **قوم هود.**قوم هود: هم عاد المذكورون في القرآن الكريم في قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ هود: ٥٠ وقوله ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ الشعراء: ١٢٣ – ١٢٤ وقوله: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الأحقاف: ٢١وعاد: اسم رجل منهم ثم صار بعده اسما للقبيلة فنُسبوا إليه. ومكانهم – كما ذكر الله تعالى – في الأحقاف بين عمان إلى حضرموت، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض وكثروا وقهروا أهلها بقوتهم التي آتاهم الله تعالى وكان قد أعطاهم من القوة والقامة ما لم يعط غيرهم، كما قال سبحانه ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾الأعراف: ٦٩ أي عظما وطولا وقوة وشدة. وكانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم هودا نبيا فأمرهم بتوحيد الله والكف عن ظلم الناس فكذبوه وتجبروا وأكثرو الفساد في الأرض ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾فصلت: ١٥ فأرسل الله عليهم ريحا صرصرا عقيما سبع ليال وثمانية أيام حسوما فأهلكتهم ولم تبق منهم أحدا ونجى الله هودا ومن آمن برحمة منه ومن خزي ذلك اليوم، وهو القوي العزيز.
- **قوم صالح:** هم أهل ثمود من قبائل العرب العاربة الذين سكنوا الحجر بين الحجاز وتبوك وقد مر به رسول الله ص وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين سنة تسع للهجرة.وأطلق اسم ثمود على قوم صالح عليه السلام وذلك لأن جدهم الأكبر كان اسمه ثمودا وهو كما يقول ابن كثير أخو جديس وهما ابنا جائر بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام.وقد أخبرنا الله تعالى عن نزول ثمود الحجر واتخاذهم فيه بيوتا نحتوها في جوف الصخر من تلك الجبال قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ الحجر: ٨٠ – ٨٢ وقال تعالى﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾﴾ الفجر: ٩ والمراد بالواد هنا وادي القرى الذي يقع بين المدينة وتبوك.وهم قوم اتخذوا الأصنام عبادة لهم من دون الله فأرسل الله تعالى إليهم رسولا منهم هو صالح عليه السلام فأمرهم بتوحيد الله وعبادته دون سواه فلم يؤمن له منهم إلا القليل وقتلوا الناقة واستعجلوا العذاب فأهلكهم الله بذنوبهم ولم يبق منهم أحدا ونجى الله صالحا والذين آمنوا برحمة منه.
- **قوم لوط.**

لوط عليه السلام هو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام احد أنبياء الله ورسله الذين واجهوا قوما قساة القلوب غلاظ الطباع، هاجر مع إبراهيم الخليل إلى أرض الشام سكن شرق الأردن المسمى « بعمق السديم» بقرب البحر الميت المسمى « ببحر لوط » بعثه الله إلى أهل سدوم عاصمة عمورية وأدمة وصويم يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن عمل الخبائث، لأنه وجدهم منحرفين عقديا ومنحرفين سلوكيا والأمر الأول كان فيمن قبلهم أما الأمر الآخر وهو الانحراف في السلوك فلم يسبقوا إليه فكان شذوذا عن الفطرة السوية والملة الحنيفية والأخلاق الإنسانية فجاهدهم لوط عليه السلام جهادا عظيما حتى أنزل الله بهم غضبه وعذابه وأليم عقابه.

- **قوم شعيب.**

أرسل الله شعيبا عليه السلام إلى قومه أهل مدين فدعاهم إلى عبادة الله وحده كما فعل الأنبياء من قبله قال تعالى ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾هود: ٨٤ ونهاهم عن الشرك وأمرهم بالعدل في المعاملات وزجرهم عن البخس في المعاملات وذكرهم بنعم الله الكثيرة عليهم فلا حاجة لهم بعدها إلى ظلم الناس وخوفهم نقمة الله وعذابه إن استمروا في ذلك. فأجابوه ساخرين مكذبين وجادلوا بالباطل عنادا وكبرا، فحاول جهده أن يردهم مرارا وتكرارا إلى الحق فما زادهم إلا غرورا وصلفا وبغضا له وللحق الذي يدعوهم إليه، فانتقم الله منهم شر نقمة وجمع عليهم أنواعا من العذاب زهقت منه أرواحهم وخمدت منه أنفاسهم.

المبحث الأول: السخرية والاستهزاء

السخرية لغة: يقال: سخر منه وبه، سخرا وسخرا ومسخرا وسخرا بالضم وسخرة وسخريا وسخريا وسخرية: هزئ به، والاسم السخرية والسخري ويكسر(١٦).

واصطلاحا: معنى السخرية الاستهانة والتحقير، والتنبيه على العيوب والنقائص، على وجه يُضْحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في القول والفعل، وقد يكون بالإشارة والإيماء(١٧).

والاستهزاء لغة: الاستهزاء مصدر قولهم: استهزأ يستهزأ، يقال: هزأ منه وهزأ به، يهزأ هزءا بالضم، وهزءا بضمتين، وهزوءا بالضم والمد، ومهزأة على مفعلة بضم العين، أي: سخر منه(١٨).

واصطلاحا: الاستهزاء هو: ارتياد الهزء(١٩) من غير أن يسبق منه فعل يستهزأ به من أجله(٢٠).

وقال ابن تيمية: الاستهزاء هو: السخرية؛ وهو حمل الأقوال والأفعال على الهزل واللعب لا على الجد والحقيقة، فالذي يسخر بالناس هو الذي يذم صفاتهم وأفعالهم ذما يخرجها عن درجة الاعتبار، كما سخروا بالمطوعين من المؤمنين في الصدقات (٢١).

الفرق بين الاستهزاء والسخرية

أن الإنسان يستهزأ به من غير أن يسبق منه فعل يستهزأ به من أجله.والسخر: يدل على فعل يسبق من المسخور منه، والعبارة من اللفظين تدل على صحة ما قلناه، وذلك أنك تقول: استهزأت به. فتعدى الفعل منك بالباء، والباء للإلصاق كأنك ألصقت به استهزاء من غير أن يدل على شيء وقع الاستهزاء من أجله، وتقول: سخرت منه. فيقتضي ذلك من وقع السخر من أجله، كما تقول: تعجبت منه. فيدل ذلك على فعل وقع التعجب من أجله (٢٢).وقد كانت السخرية والاستهزاء من الأساليب التي اتخذها المجرمون في الصد عن سبيل الله ومحاربة الأنبياء فهؤلاء قوم نوح عليه السلام كانوا يسخرون منه ويستهزئون به كلما رأوه يصنع السفينة قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾هود: ٣٨ قال القرطبي رحمه الله: وفي سخريتهم منه قولان: أحدهما- أنهم كانوا يرونه يبني سفينته في البر، فيسخرون به ويستهزئون ويقولون: يا نوح صرت بعد النبوة نجارا. الثاني- لما رأوه يبني السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت، قالوا: يا نوح ما تصنع؟ قال: أبني بيتا يمشي على الماء، فعجبوا من قوله وسخروا منه. قال ابن عباس: ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر، فلذلك سخروا منه، ومياه البحار هي بقية الطوفان(٢٣).وقال ابن عاشور: والسخرية: الاستهزاء، وهو تعجب باحتقار واستحماق ... وسخريتهم منه: حمل فعله على العبث، بناء على اعتقادهم أن ما يصنعه لا يأتي بتصديق مدَّعاه(٢٤).وكذلك كان الاستهزاء والسخرية من الأساليب التي اتبعها قوم شعيب مع نبيهم، قال تعالى ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ هود: ٨٧قال أبو حيان: لما أمرهم شعيب بعبادة الله وترك عبادة أوثانهم، وبإيفاء المكيال والميزان، ردوا عليه على سبيل الاستهزاء والهزء بقولهم: أصلاتك، وكان كثير الصلاة، وكان إذا صلى تغامزوا وتضاحكوا(٢٥).وقال ابن كثير وقولهم: ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ هود: ٨٧ قال ابن عباس، وميمون بن مهران، وابن جريج، وابن أسلم، وابن جرير: يقولون ذلك -أعداء الله – على سبيل الاستهزاء، قبحهم الله ولعنهم عن رحمته، وقد فعل(٢٦).وقال القرطبي: وروي أن شعيبا عليه السلام كان كثير الصلاة، مواظبا على العبادة فرضها ونفلها، ويقول: الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فلما أمرهم ونهاهم عيروه بما رأوه يستمر عليه من كثرة الصلاة، واستهزؤوا به، فقالوا ما أخبر الله عنهم(٢٧).

المبحث الثاني: البشرية

وقد جاء التعبير عنها بقوله تعالى ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ هود: ٢٧.قال الإمام الطبري رحمه الله: يعنون بذلك أنه آدمي مثلهم في الخلق والصُّورة والجنس، كأنهم كانوا منكرين أن يكون الله يرسل من البشر رسولا إلى خلقه(٢٨).وقال الرازي: والتفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع انتهاؤه إلى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة لجميع العالمين(٢٩).أما صاحب التحرير والتنوير فقال: فهؤلاء الكفرة من قوم نوح لما قصروا عن إدراك أسباب الكمال وتطلبوا الأسباب من غير مكانها نظروا نوحا- عليه السلام- وأتباعه فلم يروه من جنس غير البشر، وتأملوه وأتباعه فلم يروا في أجسامهم ما يميزهم عن الناس وربما كان في عموم الأمة من هم أجمل وجوها أو أطول أجساما.من أجل ذلك أخطأوا الاستدلال فقالوا: ما نراك إلا بشرا مثلنا فأسندوا الاستدلال إلى الرؤية. والرؤية هنا رؤية العين لأنهم جعلوا استدلالهم ضروريا من المحسوس من أحوال الأجسام، أي ما نراك غير إنسان، وهو مماثل للناس لا يزيد عليهم جوارح أو قوائم زائدة(٣٠).وقال الألوسي: أرادوا ما

أنت إلا بشر مثلنا ليس فيك مزية تخصك من بيننا بالنبوة ولو كان ذلك لرأيناه لا أن ذلك محتمل لكن لا نراه(٣١).والزحيلي في الوسيط قال: الشبهة الأولى- بشرية الرسل: قال أشراف القوم وزعماؤهم: ما أنت يا نوح إلا بشر مثلنا، ولست بملك، فلا مزية لك علينا حتى نطيعك في أمرك(٣٢).والشوكاني قال: هذه الجهة الأولى من جهات طعنهم في نبوته، أي: نحن وأنت مشتركون في البشرية، فلم يكن لك علينا مزية تستحق بها النبوة دوننا(٣٣).وقال الشيخ السعدي: وهذا مانع بزعمهم عن اتباعه، مع أنه في نفس الأمر هو الصواب، الذي لا ينبغي غيره، لأن البشر يتمكن البشر أن يتلقوا عنه، ويراجعوه في كل أمر، بخلاف الملائكة(٣٤).والمقصود في زعمهم أن البشر لا يصلحون لأن يكونوا أنبياء يوحي الله إليهم ورسلا يرسلهم لتبليغ رسالاته للناس، زاعمين أن البشرية تمنع من الاتصال برب العالمين لتلقي رسالة منه، وتمنع من الاتصال بأمين الوحي من الملائكة لتلقي رسالة الله عنه.

المبحث الثالث: اتباع الضعفاء

وهي ما دل عليه قوله تعالى ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ هود: ٢٧قال الإمام الطبري رحمه الله: وما نراك اتبعك إلا الذين هم سفلتنا من الناس، دون الكبراء والأشراف، فيما نرَى ويظهر لنا(٣٥).وقال الرازي: والشبهة الثانية: كونه ما اتبعه إلا أراذل من القوم كالحيَّاكة وأهل الصنائع الخسيسة، قالوا ولو كنت صادقا لاتبعك الأكياس من الناس والأشراف منهم، ونظيره قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ الشعراء: ١١١(٣٦).وقال صاحب البحر المحيط: ثم عيروه بأنه لم يتبعه إلا الأراذل أي: فنحن لا نساويهم ... وفي قوله: إلا الذين هم أراذلنا، مبالغة في الإخبار، وكأنه مؤذن بتأكيد حصر من اتبعه، وأنهم هم الأراذل لم يشركهم شريف في ذلك. ... وإنما كان كذلك لاستيلاء الرئاسة على الأشراف وصعوبة الانفكاك عنها، والأنفة من الانقياد لغيرهم، والفقير خلي عن تلك الموانع فهو سريع إلى الإجابة والانقياد(٣٧).وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير: وقالوا: وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا فجعلوا أتباع الناس المعدودين في عادتهم أراذل محقورين دليلا على أنه لا ميزة له على سادتهم الذين يلوذ بهم أشراف القوم وأقوياؤهم. فنفوا عنه سبب السيادة من جهتي ذاته وأتباعه، وذلك تعريض بأنهم لا يتبعونه لأنهم يترفعون عن مخالطة أمثالهم، وأنه لو أبعدهم عنه لاتبعوه، ولذلك ورد بعده ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ هود: ٢٩.والأرذال: جمع أرذل المجعول اسما غير صفة، كذلك على القياس، أو جمع رذيل على خلاف القياس. والرذيل: المحتقر. وأرادوا أنهم من لفيف القوم غير سادة ولا أثرياء. وإضافة: « أراذل » إلى ضمير جماعة المتكلمين لتعيين القبيلة، أي أراذل قومنا. وعبر عنهم بالموصول والصلة دون أن يقال: إلا أراذلنا، لحكاية أن في كلام الذين كفروا إيماء إلى شهرة أتباع نوح- عليه السلام- بين قومهم بوصف الرذالة والحقارة، وكان أتباع نوح- عليه السلام- من ضعفاء القوم ولكنهم من أزكياء النفوس ممن سبق لهم الهدى(٣٨).ومعنى كلامهم: أي لو كنت يا نوح على حق لاتبعك العقلاء وأهل الرأي السديد والمفكرون منا لا أراذلنا السفهاء. وطوى النص مقالة قالوها فحواها: فإن أردت أن نتبعك فاطرد هؤلاء الأراذل عن مجالسك وجماعتك واجعل لنا جماعة من كبراء القوم وملئهم بدليل الرد الذي رد به نوح عليه السلام إذ جاء ضمن رده قوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾هود: ٢٩

المبحث الرابع: الاتباع بدون روية.

ودل عليها قول الله تعالى ﴿ بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ هود: ٢٧قال ابن كثير رحمه الله: ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن ترو منهم ولا فكرة ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك ؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ هود: ٢٧ أي: في أول بادئ الرأي(٣٩).وقال أبو حيان: أي: وما نراك فيما يظهر لنا من الرأي، أو في أول رأينا، أو وما نراك اتبعك أول رأيهم، أو ظاهر رأيهم. واحتمل هذا الوجه معنيين:

أحدهما: أن يريد اتبعك في ظاهر أمرهم، وعسى أن تكون بواطنهم ليست معك. والمعنى الثاني: أن يريد اتبعوك بأول نظر وبالرأي البادئ دون تعقب، ولو تثبتوا لم يتبعوك، وفي هذا الوجه ذم الرأي غير المروي(٤٠).وقال ابن عاشور: يعنون أن هؤلاء قد غرتهم دعوتك فتسرعوا إلى متابعتك ولو أعادوا النظر والتأمل لعلموا أنك لا تستحق أن تتبع(٤١).وقال السعدي: أي: إنما اتبعوك من غير تفكر وروية، بل بمجرد ما دعوتهم اتبعوك، يعنون بذلك، أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم، ولم يعلموا أن الحق المبين تدعو إليه بداهة العقول، وبمجرد ما يصل إلى أولي الألباب، يعرفونه ويتحققونه، لا كالأمور الخفية، التي تحتاج إلى تأمل، وفكر طويل(٤٢).والمقصود أن هؤلاء الذين اتبعوك ناقصو عقول يتبعون أي داع يخدعهم من غير روية ولا عقل ولا تفكير بل يندفعون مع بادئ الرأي الذي يظهر لهم دون تأمل ومتابعة وتمحيص.

المبحث الخامس: عدم الفضيلة

ودل عليها قوله تعالى ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ هود: ٢٧قال الطبري رحمه الله: يقول: وما نتبين لكم علينا من فضل نلتموه بمخالفتكم إيانا في عبادة الأوثان إلى عبادة الله وإخلاص العبودة له، فنتبعكم طلبَ ذلك الفضل، وابتغاءَ ما أصبتموه بخلافكم إيانا(٤٣).وقال ابن عطية: وما نرى لكم علينا من فضل أي ما ثم شيء تستحقون به الاتباع والطاعة(٤٤).قال ابن كثير: هم لا يرون ذلك؛ لأنهم عمي عن الحق، لا يسمعون ولا يبصرون: بل هم في ريبهم يترددون، في ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفاكون الكاذبون، الأقلون الأرذلون، وفي الآخرة هم الأخسرون(٤٥).وقال الألوسي: وكأنّ مرادهم نفي رؤية فَضْلٍ بعد الاتباع، أي ما نرى فيك وفيهم بعد الاتباع فضيلة علينا لنتبع، وإلا فهم قد نفوا أولا أفضليته عليه السلام في قولهم ما نَراكَ إلخ، وصرحوا بأن متبعيه- وحاشاهم- أراذل، وهو مستلزم لنفي رؤية فَضْلٍ لهم عليهم، وقيل: إن هذا تأكيد لما فهم أولا، وقيل: الخطاب لأتباعه عليه السلام فقط فيكون التفاتا، أي ما نرى لكم علينا شرف في تلك التبعية لنوافقكم فيها، وحمل الفضل على التفضل والإحسان في احتمالي الخطاب على أن يكون مراد الملأ من جوابهم له عليه السلام حين دعاهم إلى ما دعاهم إليه أنا لا نتبعك ولا نترك ما نحن عليه لقولك لأنك بشر مثلنا ليس فيك ما يستدعي نبوتك وكونك رسول الله تعالى إلينا بذلك، وأتباعك أراذل اتبعوك من غير تأمل وتثبت، فلا يدل اتباعهم على أن فيك ما يستدعي ذلك وخفي عنا، وأيضا لست ذا تفضل علينا ليكون تفضلك داعيا لنا لموافقتك كيفما كنت، ولا أتباعك ذوو تفضل علينا لتوافقهم وإن كانوا أراذل مراعاة لحق التفضل، فإن الإنسان قد يوافق الرذيل لتفضله ولا يبالي بكونه رذيلا لذلك مما يدور في الخلد إلا أن في القلب منه شيئا(٤٦).وقال ابن عاشور: ولما وصفوا كل فريق من التابع والمتبوع بما ينفي سيادة المتبوع وتزكية التابع جمعوا الوصف الشامل لهما. وهو المقصود من الوصفين المفرقين. وذلك قولهم: وما نرى لكم علينا من فضل، فنفوا أن يكون لنوح- عليه السلام- وأتباعه فضل على الذين لم يؤمنوا به حتى يكون نوح- عليه السلام- سيدا لهم ويكون أتباعه مفضلين بسيادة متبوعهم.والفضل: الزيادة في الشرف والكمال، والمراد هنا آثاره وعلاماته لأنها التي ترى، فجعلوا عدم ظهور فضل لهم عليهم دليلا على انتفاء فضلهم، لأن الشيء الذي لا تخفى آثاره يصح أن يجعل انتفاء رؤيتها دليلا على انتفائها إذ لو ثبتت لرئيت(٤٧).ومعنى كلامهم: أي لا نرى لك ولمن يؤازرك في دعوتك من الذين آمنوا بك وبرسالتك واتبعوك من فضل ما تمتازون به علينا من مال أو جاه أو مكانة اجتماعية أو قصور وجنات أو غير ذلك مما يعتبرونه فضلا بحسب مفهوماتهم الدنيوية. والمراد: وما نرى لكم علينا من فضل تستحقون به أن ننتمي إليكم ونتبع طريقتكم ونترك ما نحن عليه وما كان عليه آباؤنا من قبل وما نرى لكم علينا من فضل في فهم أو علم أو معجزات وخوارق عادات.

المبحث السادس: الاتهام بالكذب.

ودل عليها قوله تعالى ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ هود: ٢٧قال الطبري: وتأويل الكلام: بل نظنك، يا نوح، في دعواك أن الله ابتعثك إلينا رسولا كاذبًا(٤٨).وقال صاحب الفواتح الالهية: بل ما نظنكم ونعتقدكم الا كاذبين في دعويكم مفترين فيها طالبين الرياسة والثروة بسببها بلا اظهار معجزة وبينة واضحة(٤٩).وقال الألوسي: ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ هود: ٢٧ جميعا لكون كلامكم واحدا ودعوتكم واحدة أو إياك في دعوى النبوة وإياهم في تصديقك(٥٠).وقال السعدي: ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ هود: ٢٧ وكذبوا في قولهم هذا، فإنهم رأوا من الآيات التي جعلها الله مؤيدة لنوح، ما يوجب لهم الجزم التام على صدقه(٥١).فهؤلاء القوم قد ارتقوا من الظن التوهمي بأنه ليس نبيا ولا رسولا حقا إلى ظن زعموه ظنا قويا بسبب الشبهات التي أوردوها سابقا. ومع أن تلك الشبهات لا يلزم منها عقلا أن يكون نوح عليه السلام ومن اتبعه كاذبين لكنهم اتخذوها ذرائع لإعلان ظنهم بأن نوحا ومن اتبعه كاذبون لا متوهمون يحسبون أنهم على حق إذ تهيأت لهم أمور زعموا بها أنهم يدعون دعوة حق. أي: وما نظنكم واهمين، بل نظنكم كاذبين.

المبحث السابع: استعجال العذاب

ودل عليها قوله تعالى عن قوم نوح: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ هود: ٣٢ قال الرازي: استعجلوا العذاب الذي كان يتوعدهم به، فقالوا: فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين(٥٢).وقال الألوسي: ولما حجهم عليه السلام وأبرز لهم ما ألقمهم به الحجر ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل. وقالوا: فَأْتِنا بِما تَعِدُنا من العذاب المعجل(٥٣).وقال ابن عاشور: ولذلك أرادوا طي بساط الجدال، وأرادوا إفحامه بأن طلبوا تعجيل ما توعدهم من عذاب ينزل بهم كقوله آنفا: إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم(٥٤).وقال

الشيخ السعدي: ولهذا عدلوا – من جهلهم وظلمهم – إلى الاستعجال بالعذاب(٥٥).وقال الدكتور الزحيلي في الوسيط: والمعنى: قال قوم نوح له: قد طال منك هذا الجدال، وهو المراجعة في الحجة ومقابلة الأقوال ومناقشتها حتى تقع الغلبة، فأتنا بما تعدنا به من العذاب والهلاك المعجل في الدنيا، إن كنت صادقا في ادّعائك أن الله يعذبنا على عصيانه في الدنيا قبل الآخرة(٥٦).وهذا تحد منهم لنبي الله نوح عليه السلام بأن يأتيهم بما كان ينذرهم به من إهلاك رباني شامل لهم في الحياة الدنيا غير العذاب الذي سوف يلاقونه يوم الدين وهم بهذا التحدي كانوا يتوهمون أنه غير صادق فيما يعدهم به بلاغا عن ربه وغير صادق في أنه نبي الله ورسوله لطول الإمهال الرباني لهم.

المبحث الثامن: ادعاء عدم الحجة

ودل عليها قوله تعالى ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ ﴾ هود: ٥٣قال الرازي: ومن المعلوم أنه عليه السلام كان قد أظهر المعجزات إلا أن القوم بجهلهم أنكروها، وزعموا أنه ما جاء بشيء من المعجزات(٥٧).وقال ابن عطية: المعنى: ما جئتنا بآية تضطرنا إلى الإيمان بك ونفوا أن تكون معجزاته آية بحسب ظنهم وعماهم عن الحق، كما جعلت قريش القرآن سحرا وشعرا ونحو هذا، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر»(٥٨) الحديث، وهذا يقضي بأن هودا وغيره من الرسل لهم معجزات وإن لم يعين لنا بعضها(٥٩).وقال ابن عاشور: وافتتاح كلامهم بالنداء يشير إلى الاهتمام بما سيقولونه، وأنه جدير بأن يتنبه له لأنهم نزلوه منزلة البعيد لغفلته فنادوه، فهو مستعمل في معناه الكنائي أيضا. وقد يكون مرادا منه مع ذلك توبيخه ولومه فيكون كناية ثانية، أو استعمال النداء في حقيقته ومجازه.وقولهم: ما جئتنا ببينة، بهتان لأنه أتاهم بمعجزات لقوله تعالى: ﴿ وَتِلۡكَ عَادٞ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾ هود: ٥٩ وإن كان القرآن لم يذكر آية معينة لهود– عليه السلام–.ولعل آيته أنه وعدهم عند بعثته بوفرة الأرزاق والأولاد واطراد الخصب وفرة مطردة لا تنالهم في خلالها نكبة ولا مصيبة، بحيث كانت خارقة لعادة النعمة في الأمم، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾فصلت: ١٥ .وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من الأنبياء نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر»(٦٠) الحديث.وإنما أرادوا أن البينات التي جاءهم بها هود– عليه السلام– لم تكن طبقا لمقترحاتهم. وجعلوا ذلك علة لتصميمهم على عبادة آلهتهم(٦١).وقال الشيخ السعدي رحمه الله: إن كان قصدهم بالبينة البينة التي يقترحونها، فهذه غير لازمة للحق، بل اللازم أن يأتي النبي بآية تدل على صحة ما جاء به، وإن كان قصدهم أنه لم يأتهم ببينة، تشهد لما قاله بالصحة، فقد كذبوا في ذلك، فإنه ما جاء نبي لقومه، إلا وبعث الله على يديه، من الآيات ما يؤمن على مثله البشر .ولو لم يكن له آية، إلا دعوته إياهم لإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، والأمر بكل عمل صالح، وخلق جميل، والنهي عن كل خلق ذميم من الشرك بالله، والفواحش، والظلم، وأنواع المنكرات، مع ما هو مشتمل عليه هود – عليه السلام – من الصفات التي لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم، لكفى بها آيات وأدلة على صدقه.بل أهل العقول، وأولو الألباب، يرون أن هذه الآية، أكبر من مجرد الخوارق، التي يراها بعض الناس، هي المعجزات فقط. ومن آياته، وبيناته الدالة على صدقه، أنه شخص واحد، ليس له أنصار ولا أعوان، وهو يصرخ في قومه، ويناديهم، ويعجزهم، ويقول لهم: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۡ ﴾هود: ٥٦﴿ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ ﴾ هود: ٥٤ – ٥٥ وهم الأعداء الذين لهم السطوة والغلبة، ويريدون إطفاء ما معه من النور، بأي طريق كان، وهو غير مكترث منهم، ولا مبال بهم، وهم عاجزون لا يقدرون أن ينالوه بشيء من السوء، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون(٦٢).

المبحث التاسع: الرمي بالخبل والجنون

ودل عليها قوله تعالى عن قوم هود ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ ﴾ هود: ٥٤قال ابن عطية: معناه ما نقول إلا أن بعض الآلهة لما سببتها وضللت عبدتها أصابك بجنون، يقال: عر يعر واعترى يعتري إذا ألم بالشيء، فحينئذ جاهرهم هود عليه السلام بالتبري من أوثانهم وحضهم على كيده هم وأصنامهم، ويذكر أن هذه كانت له معجزة وذلك أنه حرض جماعتهم عليه مع انفراده وقوتهم وكفرهم فلم يقدروا على نيله بسوء(٦٣).وقال في التحرير والتنوير: وجملة ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ ﴾هود: ٥٤ استئناف بياني لأن قولهم: وما نحن لك بمؤمنين من شأنه أن يثير للسامع ومن معه في أنفسهم أن يقولوا إن لم تؤمنوا بما جاء به أنه من عند الله فماذا تعدون دعوته فيكم، أي نقول إنك ممسوس من بعض آلهتنا، وجعلوا ذلك من فعل بعض الآلهة تهديدا للناس بأنه لو تصدى له جميع الآلهة لدكوه دكا. والاعتراء: النزول والإصابة. والباء للملابسة، أي أصابك بسوء. ولا شك أنهم يعنون أن آلهتهم أصابته بمس من قبل أن يقوم بدعوة رفض عبادتها لسبب آخر، وهو كلام غير جار على انتظام الحجة، لأنه كلام ملفق من نوع ما يصدر عن السفسطائيين، فجعلوه مجنونا وجعلوا سبب

جنونه مسا من آلهتهم، ولم يتفطنوا إلى دخل كلامهم وهو أن الآلهة كيف تكون سببا في إثارة ثائر عليها(٦٤).وقال السعدي: أي: أصابتك بخبال وجنون، فصرت تهذي بما لا يعقل. فسبحان من طبع على قلوب الظالمين، كيف جعلوا أصدق الخلق الذي جاء بأحق الحق، بهذه المرتبة، التي يستحي العاقل من حكايتها عنهم لولا أن الله حكاها عنهم(٦٥).والمعنى: أن هودا عليه السلام لعله نزل به مكروه ساءه كعارضة مرض أو مصيبة في مال أو نحو ذلك. فقال كبراء كفار قومه له: ما نقول بشأن ما نزل بك إلا أصابك بعض آلهتنا بسوء أي: ولو اجتمع كل آلهتنا على ضرك لأهلكوك أو لأنزلوا بك من المصائب أكثر مما أنزل بك بعضهم.

المبحث العاشر: الشك.

ودل عليها قوله تعالى نقلا عن قوم صالح ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ هود: ٦٢قال ابن عطية: أوجبوا أنهم في شك من أمره وأقاويله، وأن ذلك الشك يرتابون به زائدا إلى مرتبته من الشك(٦٦).وقال صاحب الفواتح: والحال انه إننا لفي شك وتردد عظيم مما تدعونا إليه من وحدة الإله المعبود بالحق وكذا من بطلان آلهتنا القديمة التي قد وجدنا آباءنا لها عابدون مريب ذي ريبة منتهية الى كمال الإنكار مع أنك أيضا لم تأت ببينة معجزة تلجئنا الى تصديقك(٦٧).والمعنى: وإننا لفي شك مما تدعوننا إليه من عبادة الله وحده وترك عبادة ما يعبد آباؤنا إذ لم نصل بعد إلى الاقتناع بأن ما تدعوننا إليه هو الحق وهذا الشك يوقعنا في الريب من غايتك النفسية إذ تدعونا إلى خلاف ما نحن عليه في تقاليدنا الدينية وموروثاتنا من أعمال وعادات وما عليه آباؤنا وشكنا هذا يجعلنا نرتاب في أنك تريد ملكا أو إمارة أو زعامة أو رياسة في قومنا وهذا أمر يقلقنا ويزعجنا.

المراجع

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، للماوردي، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى ١٣٢٧هـ.
- إحياء علوم الدين، للغزالي، دار المعرفة، بيروت.
- البحر المحيط، لأبي حيان، تحقيق صدقي جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- تاج العروس، لمرتضى الزبيدي، دار الهداية.
- التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور، الدار لتونسية للنشر، ١٩٨٤م.
- التشريع الجنائي الإسلامي، لعبدالله بن سالم الحميد، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.
- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق سامي سلامة، دار طيبة، ١٤٢٠هـ.
- التفسير الوسيط، للدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٢هـ.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ.
- التوقيف على مهمات التعاريف، لزين الدين محمد، عالم الكتب، ١٤١٠هـ.
- جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ.
- الجريمة وأحكامها العامة في الاتجاهات المعاصرة، لعبد الفتاح خضر، دار البحوث العلمية، السعودية
- الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي، قسم الجريمة، لمحمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي، تحقيق علي عبدالباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة
- الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- فتح القدير، للشوكاني، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
- الفروق اللغوية، للعسكري، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة
- الفواتح الإلهية، للنخجواني، دار ركابي للنشر، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- القاموس المحيط، للفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ.
- المحرر الوجيز، لابن عطية، تحقيق عبد السلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.
- مفاتيح الغيب، للرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.
- الوجيز في شرح التشريع الجنائي الإسلامي، محمد أحمد المشهداني، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

هوامش البحث

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ١/ ٤٠ حديث رقم ٣٧.

(٢) كتاب التوحيد ص ١٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٣/ ١٣١٩ حديث رقم ٣٤١١ ومسلم في كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن ٦/ ٢٠ حديث رقم ٥١.

(٤) التخريج السابق. حديث رقم ٣٤١٢.

(٥) معجم مقاييس اللغة ١/ ٤٥٥.

(٦) المفردات في غريب القرآن ص ٩١.

(٧) مجمع البيان في تفسير القرآن ٣/ ٥٧٧.

(٨) مجمع البيان في تفسير القرآن ٥/ ٥٢٣.

(٩) مجمع اللغة العربية ١/ ٢٢١.

(١٠) الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي لمحمد أبو زهرة ص ٢٥.

(١١) الوجيز في شرح التشريع الجنائي الإسلامي لمحمد أحمد المشهداني ص ٢٣

(١٢) الأحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردي ص ٢٧٣.

(١٣) الجريمة وأحكامها العامة في الاتجاهات المعاصرة في الفقه الإسلامي لعبد الفتاح خضر ص ١٢.

(١٤) التشريع الجنائي الإسلامي لعبدالله بن سالم ص ١١ – ١٢.

(١٥) أخرجه الترمذي، سنن الترمذي، حديث رقم ٣٢٩٧. وصححه الألباني.

(١٦) القاموس المحيط ص ٤٠٥، لسان العرب ٤/ ٣٥٢.

(١٧) إحياء علوم الدين ص ١٩٢.

(١٨) تاج العروس ١/ ٥٠٩.

(١٩) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٥٠.

(٢٠) الفروق للعسكري ص ٢٥٤.

(٢١) الفتاوى الكبرى ٦/ ٢٢.

(٢٢) الفروق للعسكري ص ٥٠.

(٢٣) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٣٢.

(٢٤) التحرير والتنوير ١٢/ ٦٨.

(٢٥) البحر المحيط ٦/ ١٩٧.

(٢٦) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٤٣.

(٢٧) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٨٧.

(٢٨) جامع البيان ١٥/ ٢٩٥.

(٢٩) مفاتيح الغيب ١٧/ ٣٣٦.

(٣٠) التحرير والتنوير ١٢/ ٤٧.

(٣١) روح المعاني ٦/ ٢٣٧.

(٣٢) التفسير الوسيط للزحيلي ٢/ ١٠٣٦.
(٣٣) فتح القدير ٢/ ٥٦٠.
(٣٤) تفسير السعدي ١/ ٣٨٠.
(٣٥) جامع البيان ١٥/ ٢٩٥.
(٣٦) مفاتيح الغيب ١٧/ ٣٣٦.
(٣٧) البحر المحيط ٦/ ١٤٠.
(٣٨) التحرير والتنوير ١٢/ ٤٨.
(٣٩) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣١٦.
(٤٠) البحر المحيط ٦/ ١٤١.
(٤١) التحرير والتنوير ١٢/ ٤٩.
(٤٢) تفسير السعدي ١/ ٣٨٠.
(٤٣) جامع البيان ١٥/ ٢٩٦.
(٤٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٦٤.
(٤٥) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣١٧.
(٤٦) روح المعاني ٦/ ٢٣٨.
(٤٧) التحرير والتنوير ١٢/ ٤٩.
(٤٨) جامع البيان ١٥/ ٢٩٧.
(٤٩) الفواتح الإلهية ١/ ٣٥٢.
(٥٠) روح المعاني ٦/ ٢٣٨.
(٥١) تفسير السعدي ١/ ٣٨٠.
(٥٢) مفاتيح الغيب ١٧/ ٣٤١.
(٥٣) روح المعاني ٦/ ٢٤٤.
(٥٤) التحرير والتنوير ١٢/ ٦٠.
(٥٥) تفسير السعدي ١/ ٣٨١.
(٥٦) التفسير الوسيط للزحيلي ٢/ ١٠٣٨.
(٥٧) مفاتيح الغيب ١٨/ ٣٦٤.
(٥٨) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، حديث رقم ٤٩٨١.
(٥٩) المحرر الوجيز ٣/ ١٨١.
(٦٠) سبق تخريجه في الصفحة السابقة.
(٦١) التحرير والتنوير ١٢/ ٩٨.
(٦٢) تفسير السعدي ١/ ٣٨٣.
(٦٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٨١.
(٦٤) التحرير والتنوير ١٢/ ٩٨
(٦٥) تفسير السعدي ١/ ٣٨٤.
(٦٦) المحرر الوجيز ٣/ ١٨٤.
(٦٧) الفواتح الإلهية ١/ ٣٥٧.